الفصل التاسع والاربعون بعد المئة

العروض

والعروض ميزان الشعر، سُمي به لأنه به يظهر المتزن من المنكسر عند المعارضة بها . وذكر الأخباريون جملة تفسيرات لسبب تسميتهم العروض عروضاً ، منها أنه علم الشعر ، ألهم الخليل به بمكة ، ومكة من العروض ، فقيل لهذا العلم عروضاً[1] ، ومنها أنه انما سمي عروضاً لأن الشعر يعرض عليه ، ومنها أنه انما عرف بعروض الشعر ، بقولهم : فواصل أنصاف الشعر ، وهو آخر النصف الأول من البيت . فالنصف الأول عروض ، لأن الثاني يبنى على الأول، والنصف الأخير الشطر . أو لأن العروض طرائق الشعر وعموده مثل الطويل ، فيقال هو عروض واحد . واختلاف قوافيه يسمى ضروباً[2] . أو لأنه إن عرف نصف البيت، وهو العروض سهل تقطيع البيت حينئذ ، ولذلك قيل له العروض[3] . وذهب البعض الى أنه إنما عرف بذلك من العرض ، لأن الشعر يعرض على هذه الأوزان فما وافق كان صحيحاً وما خالف كان سقيماً . وقيل من العروض ، أي الطريق التي في الجبل ، والمراد الطريق التي سلكتها العرب ، وقيل لما شبهوا البيت من الشعر ببيت الشعر ، شبهوا العروض الذي يقيم وزنه بالعروض ، وهي الخشبة المعترضة

---

١ تاج العروس (٥/٤١) ، (عرض) .
٢ اللسان (٧/١٨٤) ، (عرض) .
٣ الخوارزمي ، مفتاح العلوم (٥١) .

في سقف البيت ، كما شبهوا الأسبـــاب بالأسباب والأوتاد بالأوتاد ، والفواصل بالفواصل[1] . وعلم العروض ، هو علم الشعر والقافية ، ويرادفه علم الوزن : وزن الشعر ، ويدل اختلافهم الشديد في تعريفه على عدم وجود رأي واضح عند العلماء عن منشأه وعن كيفية ظهوره[2] .

وعندي ان في اختلاف العلماء هذا الاختلاف الشديد في سبب تسمية العروض عروضاً ، دلالة على ان اللفظة من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الاسلام،وانها لم تكن من وضع (الخليل) ، وانما كانت لفظة قديمة جاهلية قصد بها النظر في الشعر والتبصر بدروبه وأبوابه وطرقه ، فلو كانت الكلمـــة اسلامية ومن وضع (الخليل) لما وقع بينهم هذا الاختلاف ، وما كان (الخليل) ليهمل السبب الذي حمله على اختيار هذه التسمية ، ولسأله العلماء حتماً عن السبب الذي جعله يسمي هذا العلم عروضاً ، فقد عوّدنا العلماء ، انهم اذا وقفوا أمام أمر قديم جاهلي ، وهم لا يعرفون من خبره شيئاً ، جاءوا بآراء متباينة وبتعليلات مختلفة ، لبيـــان العلـــل والأسباب . ولـو كان العروض من العلـوم أو المسميات التي وضعت في الاسلام ، لما اختلفوا في تعريفه هذا الاختلاف ، وفي اختلافهم هذا الاختلاف في تعريفه ، دلالة على قدمه قياساً على ما عرفناه عنهم ، من اختلافهـــم في تفسير المصطلحات والمسميات القديمة .

وقد قال قوم في الإسلام لا حاجة الى العروض ، لأن من نظم بالعروض شق ذلك عليه وأتى به متكلفاً ، ومن نظم بالطبع السليم والسليقة جاء شعره طبيعيـــاً سليماً[3] . ولا بـــد وأن تكون هذه المعارضة قد ظهرت بعد ظهور علم العروض وتدوينه وتثبيت قواعده ، ومحاولة العروضيين فرض سلطان قواعدهم عـــلى الشعر والشعراء ، ولمـــا كان الشعراء ينظمون الشعر بسليقتهم وفق عرفهم الذي ألفوه وتعودوا عليه ، وعن طبع وموهبة فيهم ، لم يحفلوا بالعروض ، وصار العروض علماً يحفظه من لا يقرض الشعر الرفيع العالي المنبعث عن شاعرية وعاطفة وهيجان خاطر ، وصار شعر العروضي شعراً متكلفاً في الغالب ، لا يداني شعـر الشعراء

---

١ نزهة الجليس (١/١١٥) .

٢ Ency., Vol., I, p. 463.

٣ نزهة الجليس (١/١١٦) .

الذين يقولون الشعر ، وهم أحرار طلقاء ، لعدم وجود الموهبة الشعرية فيهم ، والبصر بالعروض يجعل من يحافظه شاعراً .

والمعروف بين الناس أن العروض وضع في الإسلام ، وضعه (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم) الفراهيدي الأزدي اليحمدي (١٠٠ — ١٧٠ ، ١٧٥)[١] . استخرج الأوزان ، ودوّن البحور ، « وكان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس . وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب »[٢] . وقد عرف بـ (صاحب العروض)[٣] . وقيل عنه : كان « الغاية في تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليله »[٤] ، « وهو أول من استخرج علم العروض ، وضبط اللغة ... وكان أول من حصر أشعار العرب ... روي عنه أنه كان يقطع العروض فدخل عليه ولده في تلك الحالة فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جُنّ . فدخل الناس عليه وهو يقطع العروض فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما أقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذلتكا »[٥]

و (الخليل) نفسه من الشعراء ، وقد أورد العلماء له شعراً[٦] . وقد أورد (ابن قتيبة) له أبياتاً ، عقب عليها بقوله : « وهذا الشعر بيّن التكلف رديء الصنعة . وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً[٧] .

وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع نشأة النحو والعروض في الاسلام ، فقال : « فإنا لم نزعم ان العرب كلها — مدراً ووبراً — قد عرفوا

---

١ الفهرست (٦٩ وما بعدها) ، (المقالة الثانية) ، القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٢)
٢ الفهرست (٧٠) .
٣ السيوطي ، بغية (٢٤٣) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٨١) ،ابن الانباري ، نزهة (٥٥) .
٤ نزهة الالباء ، لابن الانباري (٢٩) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٥ نزهة الالباء (٢٩ وما بعدها) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٦ المحاسن والاضداد (٥٠) ، الشعر والشعراء (١/١٦) ، (٢/٦٣٠) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٦) .

الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة ، وأبو حيّة كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان في أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كاتبون » . « أفيكون جهل أبي حيّة بالكتابة حجة على هؤلاء الأئمة ؟

والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها:

شاقتك أظعان ليـ ـلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام ، وقلاّ في أيدي الناس . ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب . وأما العروض فمن الدليل على انه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على ان المشركين لما سمعوا القرآن قالوا — أو من قال منهم — انه شعر . فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم، لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك . أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ وقد زعم ناسٌ ان علوماً كانت في القرون الأوائل والزمن المتقادم ، وانها درست وجددت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة الى لغة . وليس ما قالوا ببعيد »[1] .

« ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات

---

١ الصاحبي (ص ٣٦ وما بعدها) .

الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل (الخبء) و (الدفء) و (الملء) فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره العلماء ترك أتباع المصحف من كره »[1] .

فابن فارس إذن من الذين رأوا أن العرب الجاهليين كانوا على علم بالعربية وبعروض الشعر ، قبل (أبي الأسود الدؤلي) و (الخليل بن أحمد الفراهيدي). وأن فضل الرجلين على العلم ، إنما هو في جمع علم الأوائل وتثبيته وتدوينه،وهو فضل لا ينتقصه عليها منتقص . وهو استنتاج يتفق مع قواعد المنطق تمام الاتفاق . لأن من غير المعقول أن يضع إنسان قواعد لغة أو قواعد شعر ، من غير أن يكون له علم سابق بأنواع الكلام وباختلاف الاقراء وبالأسس اللغوية والنحوية التي لا يد من تعلمها حتى يتمكن المرء من بناء قواعد أساسية عليها ومن حصر دائرة العلم والإحاطة بأغصان شجرة ذلك العلم ، ويكاد يكون من المستحيل وضع قواعد العربية ، أو علم العروض على النحو الذي يعرضه علينا علماء اللغة والشعر ، من رجل لا علم مسبق له بقواعد اللغة وبأمور الشعر .

وفي خبر أن رسول الله دخل المسجد فرأى رجلاً يحدث الناس بأنساب العرب وأيامها وبالأشعار ، والعربية ، فقال رسول الله : « ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه ، وانما العلم ثلاثة : آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاها فهو فضل »[2] . والأمور المذكورة هي مما كان يتحدث به أهل العلم والثقافة من الجاهليين . والشعر في طليعة تلك الموضوعات ، ولا يراد به انشاده فقط ، بل كانوا ينشدونه ويذكرون المناسبات المتعلقة به ومزاياه وعيوبه ، ولا أعتقد ان المراد بالعربية مجرد تفسير المفردات ، بل كل ما يخصها من أمور . وفي جملة ذلك أخطاء القول ، وقواعد العرب في القول .

ويذكر أهل الأخبار ان الذي حمل (الخليل) على وضع العروض ، هو انه مر بسوق الصفارين أو بحارة القصارين ، فسمع الدق بأصوات مختلفة ، فأعجبه ، وقال : والله لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً، فصنع هذا العروض على حدود

---

١ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (٣٨ وما بعدها) .

٢ الكليني (١٢) .

الشعر وجعل بحورها ستة عشر بحراً[1] . وهي قصة باردة من قصص أهل الأخبار، فقد كانوا يضعون مثل هذا القصص حين يُسألون عن أمور ، لا يكون لهم علم بها ، وهل يعقل أخذ الخليل بحوره من دق مطارق الصفارين المزعجة ، التي تخرش الأذن ، وتبعد الانسان عن التفكير ، وتطير من الدماغ ما قد يكون فيه من علم . فالقصة من مخترعات أهل الأخبار وضعوها في ايجاد سبب لوضع هذا العلم ، فربطوا بين دق مطارق الصفارين وبين تقطيع الشعر .

ولا يعقل في نظري أن يكون الخليل قد وضع العروض من غير علم مسبق بأصول نظم الشعر عند أهل الجاهلية . اذ لا يمكن للحس المرهف وحده أن يبتكر العلم ابتكاراً من غير علم مسبق وقواعد سابقة وأصول مقررة معروفة . ولا يعقل أن يكون الخليل قد وضع الأسماء والمصطلحات والتعاريف بنفسه من غير رجوع الى علم سبق للشعراء الجاهليين أن وضعوه ، ومن رجوع الى قواعد ومصطلحات سبق ان كانت مقررة ، ففي أخبار أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كان لهم علم بالشعر ، كالذي ذكرته من مثل « حال الجريض دون القريض » ، وما روي على لسان (الوليد بن المغيرة) من قوله في اتهام قريش للرسول من أنه شاعر : « لقد عرفت الشعر ورجزه وهزجه وقريضه فما هو به »[2] . وما روي عن إسلام (أبي ذر الغفاري) : ومن قول أخيه (أنيس) له : « لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله » فلما سأله (أبو ذر) « فما يقول الناس ؟ قال : يقولون ساحر كاهن شاعر . وكان أنيس أحد الشعراء ، فقال : والله لقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد ، أي على طريق الشعر وبحوره »[3]. وقد ورد أن أهل (يثرب) كانوا يعرفون (الاقواء) و (الإكفاء) في الشعر، وكانوا يعدّونهما من عيوب الشعر[4] . وقد علمنا أن مصطلح (الرجز) و(الهزج) و (الرمل) و (القصيد) وأمثال ذلك هي من مصطلحات أهل الجاهلية . ثم إن أكثر مصطلحات العروض هي مصطلحات كانت معروفة في الجاهلية ، وقد أخذت

---

١ نزهة الجليس (١/١٢٤) .
٢ اللسان (٥/٣٥٠) .
٣ الطبقات (٤/٢٢٠) « صادر » ، تاج العروس (١/٣٧١) « الكويت » ، الفائق (١/٥١٨) ، تاج العروس (١/١٠٣) ، (قرأ) ، الاصابة (١/٨٨) ، (رقم ٢٨٩) .
٤ الموشح (٥٩) .

من حياتهم ، فهي ليست بمصطلحات مبتكرة ، حتى نقول إن الخليل أوجدها من عنده ، وان علم العروض علم مستحدث نتيجة لذلك ، أوجده الخليل بملاحظاته وذكائه من دون علم سابق بأصول الشعر .

وورد أيضاً ، ان (عتبة بن ربيعة) لما مدح القرآن ، لما تلاه رسول الله ، قالت له قريش : هو شعر ، قال : لا لأني عرضته على أقراء الشعر ، فليس هو بشعر . أقراء الشعر : طرائقه وأنواعه[1] . وسئل (الحطيئة) عن (زهير بن أبي سلمى) ، فقال : « ما رأيت مثله في تكفيه على أكناف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء »[2] . وكلام مثل هذا لا يمكن أن يصدر إلا من رجال لهم علم بالشعر وبدروبه وبحوره وأنواعه .

والذي أراه،ان شعراء الجاهلية كان لهم علم سابق بالشعر وضعوه قبل الاسلام، ولهم قواعد ورثوها من أسلافهم القدماء في كيفية نظم الشعر ببحور . كانوا يعرفون البحور ، وربما كانوا قد وضعوا لها أسماء ، على نحو ما يفعله شعراء الشعر العامي في هذا اليوم ، وأكثرهم ممن لا يحسن الكتابة والقراءة ، غير انهم يعرفون طرق الشعر العامي ودروبه ، سمّوها بأسماء ، وعرّفوها ، ووضعوا لها أوزاناً وزنوا بها شعرهم ، وحكموا بموجبها حكمهم على الشعر، فتراهم ينتقدون شاعراً فيرفعون شعره ، أو يذمونه ، يزنون حكمهم بميزان علمهم المتوارث والمتعارف عليه عن الشعر . وقد وضع بعض المحدثين كتباً في هذا الشعر ، وفي ضبط دروبه وتسجيل قواعده . والذي فعله (الخليل) لا يخرج عن هذا العمل، حصر وسجل ما كان معروفاً بين الشعراء عن بحور الشعر وأبوابه وقواعده ، ثم جمعه في كتاب فعدّ بعمله هذا مؤسس علم العروض . وانما هو في الواقع جامع شتات هذا العلم ومسجل قواعد الشعر وبحوره . فهو بذلك أول من فعل هذا الفعل على ما أعلم . وهو عمل يشكر بالطبع عليه .

والذي أعانه وساعده على هذا الحصر والجمع ، هو وجوده في العراق، وكان أهل العراق يتدارسون النحو والشعر واللغة قبل الاسلام . كانوا قد نقلوا الى

---

١ اللسان (١٥/١٧٥) ، (قرا) ، (اقرأ الشعر أنواعه وطرقه وبحوره) ، تاج العروس (١/١٠٣) ، (قرأ) ، الفائق (١/٥١٨) ، ابن سعد ، طبقات (٤/١ ص ١١٦ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٨١) .

السريانية — لغة الثقافة والعلم — علم اليونان باللغة والنحو والشعر ، فساعدهم هذا النقل على تهذيب ما ورثوه من رجالهم من علم بهـذه المعارف ، وقاسوه بأقيسة ونظموه تنظيماً علمياً ، وظلوا يتداولونه ، فلما دخل منهم من دخل في الاسلام، أو احتك بالمسلمين ، وكان عند العرب كلام في اللغة وفي الشعر ، ولا سيما عند عرب العراق النصارى ، فلا يستبعد عرض هؤلاء ما كان عندهم من علم باللغة والشعر الى من كان له ميل لمثل هذه الدراسات ، كأبي الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد ، فصار هذا العرض سبباً لظهور الأسس في النحو وفي العروض . وقد أدرك ذلك العلماء ، فقال (الصفدي) : « إن الشعر اليوناني له وزن مخصوص ولليونان عروض لبحور الشعر . والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل ، قلت ولا يبعد أن يكون وصل الى الخليـل بن أحمد شيء من ذلك أعانـه على ابراز العروض الى الوجود »[1] . فهو من ثم « أول من استخرج علم العروض وحصر أشعار العرب فيها »[2] ، ولكنه لم يكن مخترع هذا العلم وموجده من العدم . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان (عروض) Prosody (أرسطو) هو الذي علّم (الخليل) طريقة وضع (العروض) واستنباط تفاعيل الشعر وبحوره[3] .

ولابن خلّكان رأي طريف في المنبع الذي استمد منه (الخليل) علم العروض، تراه يتحدث عنه فيقول : « وله معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فإنهما متقاربان في المأخـذ »[4] . وكان الخليل صاحب عـلم بالموسيقى ، ومن بين كتبه (كتاب النغم) ، فرجل ذو علم بالموسيقى،وبتقاطيعها وأوزانها ، يكون له ميل الى الشعر وأوزانه،خاصة وأن بين الشعر والغناء والموسيقى روابط قديمة . فقـد « كانت العرب تغني النصب ، وتمدّ أصواتها بالنشيد ، وتزن الشعر بالغناء . فقال حسان :

تغنّ بالشعر إمّا أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار »[5]

---

١ نزهة الجليس (١/١١٦) .

٢ نزهة الجليس (١/١٢٤) .

٣ Freytag. Darstellung d. Arabi, Verskunst, S., 18, William Lindsay Alexander, A Cyclopaedia of Biblical Literature, Vol., I, p. 188.

٤ ابن خلكان (١/٢١٦ وما بعدها) .

٥ المرزباني ، الموشح (٣٩) .

وروي أن الخليفة (عمر) قال يوماً للنابغة الجعدي : « أسمعني بعض ما عفا الله لكَ عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له ، قال له : وإنك قائلهـــا ؟ قال : نعم . قال : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطّاب »[1] . فإذا كان العرب قـــد وزنوا الشعر بالغناء،فلا يستبعد أن يكون الخليل قد ألهم من فعل العرب هذا قبله.

وقد ذكرت في الجزء الخامس من هذا الكتاب[2] ، أنه قد كان للشعر علاقة كبيرة بالغناء ، فالغناء هو التغني بالشعر ، ولذلك قالوا : تغنى بالشعر ، وفلان يتغنى بفلانة إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحداء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً[3] . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . قال (الجاحظ) : « العرب تقطع الألحان الموزونة ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون[4] . وقال (ابن رشيق) : « وزعم صاحب الموسيقى أن ألـذ الملاذ كلها اللحن ، ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان والأشعار معايير الأوتار لا محالة ، مع أن صنعة صاحب الألحان واضعة من قدره ، مستخدمة له ، نازلة به مسقطة لمروءته . ورتبة الشاعر لا مهانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابـة العلم ، وتكسوه جلالة الحكمة »[5] .

ولا يستبعد تغني الشعراء الجاهليين بشعرهم ، واستعمالهم آلات الموسيقى مثل الرباب لترافق غناهم بشعرهم ، كما يفعل شعراء البادية في هذه الأيام . وقد ذكر ان الشاعر (عروة بن أذينة) ، وهو من شعراء العصر الأموي « كان شاعـراً لبقاً في شعره ، غزلاً . وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حداثته وينحلها المغنّين »[6] . وكان من شعراء المدينة[7] .

---

١ العقد الفريد (٤/٩٠) .
٢ (ص ١٠٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٥/١٣٥) ، (غنى) ، تاج العروس (١٠/٢٧٢) .
٤ رسائل الجاحظ (٢/١٥٨) .
٥ العمدة (١/٢٦) .
٦ العقد الفريد (٤/٩٦) .
٧ الاغاني (٢١/١٠٥ وما بعدها) ، الشعـــر والشعراء (٢/٤٨٣ وما بعدهـــا) ، المرتضى ، أمالي (١/٤٠٨ وما بعدها) ، السمط (٢٣٦) ، درة الغواص (١٣٥) ، المعارف (٤٩٢) .

ومن آيات علم الجاهليين بصناعة الشعر وبفنونه وحذقهم بأساليبه ، استعمالهم بحور الشعر حسب المواقف والمناسبات واتخاذهم الايقاع والنغم وجرس الألفاظ أساساً في النظم ليكون الشعر مطابقاً للمناسبة التي سينظم لها . فللغناء بحور ، وللقتال بحور تثير القلوب وتلهبها ، وللسفر وزن ، وللمناسبات المؤلمة مثل الرثاء والتوجع وزن يناسبها ، وكل ذلك ناتج عن طبع وتطبع وعلم بالمناسبة ، وقد أشير الى هذا الاستعمال في الأخبار . وهذه المناسبات هي التي خلقت تلك البحور .

ومن آيات علم الجاهليين بالشعر ، ما نقرأه في الأخبار عن علم أهل الجاهلية بطرائق الشعر وأبوابه وبعيوبه وضعفه ، ومن أخذهم على الشعراء في أيام الجاهلية وقوعهم في الأخطاء ، أو مخالفتهم لأصوله ونغمه وخروجه على ما هو متعارف عليه . وأمثال ذلك مما يدل على ان الشاعر وإن كان ينظم الشعر عن طبع وسليقة ، وعن موهبة كامنة فيه ، لكنه كان يراعي في نظمه قواعد موروثة معلومة ، وأصولاً محفوظة ، على نحو ما نراه اليوم عند الشعراء الشعبيين ، الذين ينظمون الشعر العامي (الشعر النبطي) ، المقال باللهجات العامية ، وفق قواعد مقررة عندهم معروفة ، وأبواب مسماة عندهم موسومة ، يحفظونها حفظاً ، لأنها هي غير مدونة ، ثم إن أكثرهم ممن لا يقرأ ولا يكتب .

ومما يؤيد هذا الرأي ما جاء في (لسان العرب) : « قال أبو الحسن الأخفش : النصبُ في القوافي ، أن تسلم القافية من الفساد ، وتكون تامة البناء ، فإذا جاء ذلك في الشعر المجزوء ، لم يُسم نصباً ، وإن كانت قافيته قد تمت ، قال : سمعنا ذلك من العرب ، قال : وليس هذا مما سمى الخليلُ ، وإنما تؤخذ الأسماء عن العرب »[1] . فالأسماء والأصول أخذت من العرب ، ومعنى هذا أنه قد كان للعرب علم سابق بأصول الشعر وبقواعده ، وقد تمكن (الخليل) بذكائه وبتتبعه للعلوم من جمع تلك القواعد ، في العروض ومن أخذ ما كان عند الشعراء والعارفين بفنونه من مصطلحات وعلم ، فكوّن من كل ذلك : العروض .

هذا وان المعلوم أن (أرسطو) كان قد ألف كتاباً في الشعر وفي العروض Prosody وقد تطرق فيه الى الوزن Metre أي وزن الأبيات والقصيدة ، كما تكلم عن (التفعيلات) ، وعن أنواع النظم ، وقد درس كتابه علماء ذلك الوقت ،

---

[1] اللسان (١/٧٦١) ، (نصب) .

ووقف عليه السريان قبل الإسلام ، ونقل الى العربية في الإسلام ، قـال (ابن النديم) : « الكلام على أبوطيقا : ومعناه الشعر،نقله أبو بشر متى من السرياني الى العربي ، ونقله يحيى بن عدي »[1] . وتوجد ترجمة كتاب (الشعر) ، في العربية مطبوعة في هذا اليوم ، وثبت أيضاً ان البابليين وغيرهم من أهل العراق، كانوا قد وضعوا قواعد في نظم الأشعار وفي تأليف أبياتها ، وفي أصول نظمها ، فلا استبعد وصولها الى المتأخرين من العراقيين الذين عـاشوا الى أيام الإسلام ، فوقف عليها (الخليل) ، واستنبط منها فكرته في وضع العروض .

والذي أراه أن للبت في منشأ علم العروض ، لا بد من البحث عن المصطلحات العربية الجاهلية التي كانت شائعة عند العرب في الجاهلية وعند ظهـور الإسلام ، عن تكوين الشعر وأصول نظمه ، ثم تتبع مصطلحات الشعر عند الساميين ، مثل الكلدانيين والعبرانيين ومقارنة مسمياتها بالمسميات العربية المنسوبة الى (الخليل) ، لمعرفة صلتها بعضها ببعض . ومن دراسة البحور ، وتفاعيلها ، وأصول نظمها، فقد ثبت أن لتلك الشعوب قواعـد في نظم الشعر ، راعاها الشعراء في نظمهم شعرهم[2] .

ولفظة (بحر) و (البحور) المستعملة في العروض ، هي من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . ورد في كتب اللغة ان الشاعر اذا اتسع في القول، قالوا استبحر[3]. ولما جاء (الحارث بن معاذ بن عفراء) على (حسان بن ثابت) ليستحثه في هجاء (النجاشي) الذي هجا الأنصار ، ألقى عليه (حسان) ثمانية أبيات ، ثم توقف ومكث طويلاً على الباب يقول : والله ما أبحرت[4] . وذكر ان (أبا بكر) كان يقدم النابغة على غيره من الشعراء ، فلما سئل عن ذلك قال : « هو أحسنهم شعراً،وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[5] . ومن هذا المعنى أخذ مصطلح (بحر) و (بحور الشعر) و (بحور العروض) .

وكان الجاهليون أصحاب علم اذن بطرق الشعر وببحوره وبمقاصده وانحائه ،

---

١ الفهرست (ص ٣٦٣ وما بعدها) .
٢ Otto Weber, Die Literatur der Babylonier und Assyrer, Leipzig, 1907, S. 35.
٣ اللسان (٤/٤٤) .
٤ خزانة الادب (٤/٥٥ وما بعدها) ، ديوان حسان (١٣١ وما بعدها) .
٥ العمدة (ص ٩٥ ، ١٣٦ وما بعدها) .

وكانوا يطلقون على أنواعه وعلى ما ذكرت (أقراء الشعر)[1] . وكانوا ينقحونه ويحككون به حتى يرضون عنه . ويقال للشعر الذي لم يحكم ولم يجود (شعر خشيب) و (شعر مخشوب) ، عكس الشعر المنقح المجوّد . ورد على لسان (جندل بن المثنى) قوله :

قد علم الراسخ في الشعر الأرب
والشعراء أنـــي لا أختشب
حسرى رذاياهم ولكن اقتضب[2]

والاقراء في الشعر طرائقه وأنواعه ، واحدها قرو وقرى[3] .

والإكفاء أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والاصراف ، والإكفاء ، والسناد . وقد عرفه العرب القصحاء ، بأنه الفساد في آخر البيت والاختلاف . وكانوا يقولون لمن يخالف بين حركات الروي : (أكفأ) أو (أكفأ الشاعر) . وقد كان (النابغة) يكفيء في شعره . وقـــد نبّه الى ذلك ، فتجنب بعضه وهذّبه[4] .

والإقواء عيب آخر من عيوب الشعر . وللنابغة في هذا خبر. فلما دخل (يثرب) وأنشد داليته المشهورة ، عيب عليه فيها ، فـــلم يفهم موطن العيب فيه ، وهو (الإقواء) ، فلما غنته المغنية بالقصيدة مطلت واو الوصل ، فأحس بالإقواء واعتذر منه وغيره فيما يقال الى قوله :

وبذاك تنعاب الغرابِ الأسودِ

ثم قال : « دخلت يثرب وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعـــر العرب »[5] . وكان (بشر بن أبي خازم) يقوي في شعره كذلك[6] . وذكر ان

---

١ تاج العروس (١/٣٧١) « الكويت » .
٢ تاج العروس (٢/٣٥٤) .
٣ تاج العروس (١٠/٢٩٣) ، (قرو) .
٤ تاج العروس (١/٣٩٦) « الكويت » ، العمدة (١/١٦٤ وما بعدها) ، المـوشح (٦٠) .
٥ اللسان (١٥/٢٠٩ وما بعدها) ، الشعر والشعـــراء (١/٣٩ ، ١٩٠) ، (دار الثقافة) ، الموشح (٥٩ وما بعدها) .
٦ الموشح (٦٠) .

أخاه قال له : انك تقوي[1] .

وبينما نرى أهل الأخبار يرمون (النابغة) بالوقوع في الإكفاء وفي الإقواء ، وبعدم إدراكه للإقواء مع تلميح الناس له ، حتى دبر أهل يثرب حيلة ، أظهرت إقواءه له ، فعلمه ، وخرج ، وهو يقول : « دخلت وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر العرب » ، يذكرون ان (أبا ذكوان) ، وهو من العلماء بالشعر يقول : « ما رأيت أعلم بالشعر منه . ثم قال : لو أراد كاتب بليغ ان ينشر من هذه المعاني ما نظمه النابغة ما جاء بـــه إلا في أضعاف كلامه . وكان يفضل هذا الشعر على جميع أشعار الناس »[2] .

والإقواء أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور. وقيل نقصان الحرف من الفاصلة يعني من عروض البيت . وأقـوى في الشعر ، خالف بين قوافيه . وقيل هو رفع بيت وجر آخر . وذكر ان الاقواء كثير في كلام العرب ، لكن ذلك في اجتماع الرفع مع الجر وأما الإقواء وان كان عيبـاً لاختلاف الصوت به ، فإنه قـد كثر في كلامهم »[3] ، وكان « أبو عمرو بن العلاء يذكر أن الاقواء : هـو اختلاف الإعراب في القوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة ، وأخرى مخفوضة . كقول النابغة :

قالت بنو عامرٍ : خالوا بني أسدٍ يا بؤس للجهـل ضراراً لأقوامِ

وقال فيها :

تبدو كواكبُه والشمس طالعـة لا النور نور ولا الإظلام إظلامُ »[4]

« وبعض الناس يسمي هذا الإكفاء : ويزعم أن الإقواء نقصانُ حرف من فاصلة البيت، كقول حنجل بن نضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم وركب بها المفاوز ، واسمها النوار :

---

١ الشعر والشعراء (١٤٦) .
٢ انباه الرواة (٣/١٠) ، ديوان المعاني (١/١٧) ، المصون (١٥٦) ، بغية الوعاة (٣٧٥) .
٣ تاج العروس (١٠/٣٠٧) ، (قوو) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٩) ، (دار الثقافة) .

حَنّت نوار ولاتَ هنّا حنت وبدا الذي كانت نوار أجنّتِ
لمـا رأت مـاء السَّلا مشروباً والفرثَ يُعصرُ في الإناء أرنتِ

سمي اقواء لأنه نقص من عروضه قوة » . « وكان يستوى البيت بأن تقول: متشرباً »[1] .

وقد تعرض (المعري) لموضوع الاقواء وأمثاله في رسالة الغفران ، إذ يسأل (امرأ القيس) عنه ، ثم يجيب على لسانه . يقول الشاعر : « كيف يُنشد :

جالت لتصرعني فقلت لها:قرى إني امرؤ صرعي عليك حرامِ

أتقول : حرامُ فتقوي ؟ أم تقول : حرامِ فتخرجه مخرج حذامِ وقطام ؟ وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الاقواء عليك . فيقـول امرؤ القيس : لا نكرة عندنا في الاقواء »[2] . فهو يرى ان الاقواء لم يكن منكراً عند أهل الجاهلية : وإنما عيب عليه في الإسلام .

ومن مصطلحات علماء الشعر : (الإيطاء) ، قال العلماء : أطأ كرر القافية لفظاً ومعنى مع الاتحاد في التعريف والتنكير ، فإن اتفق اللفظ واختلف المعنى فليس بإيطاء ، وكذا لو اختلفا تعريفاً وتنكيراً . وقال بعضهم الإيطاء رد كلمة قـد قفيت بها مرة نحو قافية على رجل وأخرى على رجل فهـذا عيب عند العرب ، لا يختلفون فيه ، وقد يقولونه مع ذلك . ووجه استقباح العرب الإيطاء، انه دال عندهم على قلة مادة الشاعر ونزارة ما عنده حتى اضطر الى إعادة القافية الواحدة في القصيدة بلفظها ومعناها فيجري هذا عندهم مجرى العي والحصر ، وأصله أن يطأ الانسان في طريقه على أثر وطىء قبله فيعيد الوطء عـلى ذلك الموضع ، وكذلك إعادة القافية من هذا . وقال (أبو عمرو بن العلاء) : «الإيطاء ليس بعيب عنـد العرب ، وهو إعادة القافية مرتين » ، أما اذا كثر الإيطاء في قصيدة مرات فهو عيب عندهم[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/٣٩ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣٢٠) .
٣ اللسان (١/٢٠٠) ، (وطىء) ، تاج العروس (١/١٣٥) ، (وطىء) ، الشعـر والشعراء (١/٤١) .

والمضمن من الشعر ما لا يتم معناه إلا في البيت الذي بعده . وقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من عدّه عيباً ، ومنهم من لم يعدّه عيباً ، ويراه مذهباً أجازه العرب لسببين : السماع ، والآخر القياس . أما السماع فلكثرة ما يرد عنهم من التضمين، وأما القياس فلأن العرب قد وضعت الشعر وضعاً دلت به على جواز التضمين عندهم . وحجة من قال بتقبيح التضمين : ان كل بيت من القصيدة شعر قائم بنفسه ، فمن هنا قبح التضمين شيئاً . وقد أوردوا للنابغة ولغيره من الشعراء أمثلة من التضمين[1] . وهو بهذا المعنى معروف عند غير العرب من الساميين والآريين ، إذ ان الأبيات عندهم ترتبط معانيها بعضها ببعض ، فلا يفهم معنى بيت إلا بالبيت الذي يليه . ولهذا تكون أبيات القطعة أو القصيدة مرتبطة بعضها ببعض ، ولا سيما في أشعار الملاحم والغناء .

والإصراف في الشعر ، إذا أقوي فيه وخولف بين القافيتين[2] . وأما السناد ، فاختلاف الأرداف . وقال (الأخفش) أما ما سمعت من العرب في السناد ، فإنهم يجعلونه كل فساد في آخر الشعر ولا يحدّون في ذلك شيئاً وهو عندهم عيب » . وقد أشير اليه في قول الشاعر :

فيه سناد واقواء وتحريد[3] .

وتحريد الشيء تعويجه .

وقيل : السناد : هو أن يختلف إردافُ القوافي ، كقولك علينا في قافية وفينا في أخرى[4] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الأوتاد ، والأسباب ، والخرم والزحاف، فقال: « وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل ، والبسيط ، والمديد ، والوافر ، والكامل ، وأشباه ذلك ، وكما ذكر

---

١ اللسان (٢٥٨/١٣ وما بعدها) ، (ضمن) ، تاج العروس (٢٦٥/٩) ، (ضمن)، العمدة (٨٤/٢) ، (باب التضمين والاجازة) .
٢ اللسان (١٩٣/٩) .
٣ اللسان (٢٢٣/٣) .
٤ الشعر والشعراء (٤٠/١) .

الأوتادَ ، والأسباب ، والخرم ، والزحاف . وقد ذكرت العرب في أشعارهـا السِناد ، والإقواء ، والإكفاء ، ولم أسمع بالإيطاء . وقالوا في القصيد ، والرجز ، والسجع ، والخطب ، وذكروا حروف الروي والقوافي ، وقالوا هذا بيتٌ وهذا مصراع »[1] .

وقد أباح علماء الشعر للشاعر مـا لم يبيحوه للناثر من (ضرورة) دعوها : (ضرورة الشعر) . وقد جاءوا بأمثلة على ذلك ، اعتذروا عن بعضها ، وأوجدوا لها مخارج في الإعراب ، وعدّوا بعضاً منها من (العيب في الإعراب)[2] ، وورد: « الشعراء أمراء الكلام ، يقصّرون الممدود ، ويمـدّون المقصور ، ويقدّمون ويؤخرون ، ويومئون ويشيرون ، ويختلسون ويُعربون ويستعربون . فإما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب فليس لهم ذلك »[3] .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع (العروض) ، فقال : « وعلى الرغم من انه لا تزال تعوزنا بحوث شاملة لفن العروض عند قدامى الشعراء ، يمكن أن نقرر اليوم بحق ان هذا الفن كان يعتمد عندهم على قواعد ثابتة . نعم نجـد في بعض قصائد الشعراء الأقدمين أبياتاً خارجة عن العروض الـذي وضعه الخليل بن أحمد ، وما وضعه سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط في كتابه العروض ، كما في قصائد المرقش الأكبر ، وعبيد ، وعمرو بن قميئة ، وامـرىء القيس ، وسلمى ابن ربيعـة . ويبدو ان هذه الظواهـر آثار قليلة لمرحلة من النمو لم نقف على كنهها بعد .

وبذل الشعراء المتأخرون محاولات للتخلص من قوانين العروض العربي ولكنهم قلما خرجوا عليه[4] .

وقد تعرض (الهمداني) لموضوع الشعر العربـي وقواعد العروض ، وخروج الشعر على سلطة هذا العلم ، فقال : « أنشدني سعيد بن أبحر الهمداني ، وكان شاعراً بدوياً مطبوعاً :

---

١ البيان والتبيين (١/١٣٩) .
٢ الشعر والشعراء (١/٤٢ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢/٤٧١) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٥٤) .

يا سمع يا بصري لو جاءكم خبري لكان في عذر ناع عـلى كُور
وفي بني عامر ناع عـلى خاطرٍ وفي قرى صـافر حزن وتثبـير

وكان للجاهلية الجهلاء مذهب في الشعر من الأزحاف وغيره ما يستنكره الناس اليوم كقول علقمة :

ومنّا الذي نودي بسبعة آلاف غـلاماً صغيراً مـا يشد إزارا

وكقوله :

كأن بـه سيد حلاحـل تُصر مـن دونـه الطروق

وقول بعض حمير في أيام جديس ، النصف الأول من روي والنصف الآخر من روي ، قصيدته :

للهِ عينا من رأى حسان قتيـلاً في سالف الأحقاب

ومن ذلك شعر مـالك بن الحصيب اللعوي ، وهو قديم في حلف ربيعة ، وأوله :

أنا مالك وأنا الذي جددت حلفا لكنـدة قبلنا قـد كان سلفا

الشعر ، وفي وزنه زيادة حرفين »[1] .

وقد يحسن العلماء في المستقبل بدراستهم لما ورد في مؤلفات الهمداني وغيره من شعر قديم ينسب الى قدماء شعراء اليمن والى الشعراء اليمانيين والعرب الجنوبيين عامة الذين نظموا بأسلوبهم الخاص ، لما في هذه الدراسة من فائدة كبيرة في إعادة بناء نظريات العلماء الحالية عن الشعر الجاهلي .

وفي الدواوين وكتب الأدب أمثلة على أمور خرج فيها الشعر على قواعد العروض أو النحو . من ذلك قول امرىء القيس :

كأن أباناً في أفانين وَدْقِه كبير أناس في بجاد مزمّل

---

١ الاكليل (٢/٤٩ وما بعدها) .

فقد ضم اللام في نهاية البيت ، وهي مكسورة في المعلقة جميعها[1] . ورووا أموراً أخرى وقعت في شعره أيضاً[2] ، وفي قصيدة (عبيد بن الأبرص) :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيـاتُ فالذنوبُ

فهي من مخلع البسيط ، قلما يخلو بيت منهـا من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة[3] . وفي قصيدة المرقش الأكبر :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ لو كان رسمٌ ناطقاً كلَّمْ

فهي من السريع ، وقد خرجت شطور أبياتها على هذا الوزن ، كالشطر الثاني من هذا البيت :

ما ذنبنا في أن غـزا ملكٌ من آل جفنة حازمٌ مرغم

فإنه من الكامل[4] . ورووا اضطراباً وقع في شعر (عدي بن زيد العبادي) ، على النحو المذكور ، خرج فيه من السريـع الى وزن المديدْ[5] ، وفي شعر غيره كذلك مثل نونية (سُلَمي بن ربيعة) :

إن شـواءً ونشوة وخبب البازل الأمون

فهي خارجة عن عروض الخليل[6] .

ورووا وقوع مثل ذلك في قصيدة عدي بن زيد العبادي :

تعرف أمس من لميس الطلَلْ من الكتاب الدارس الأحولْ

---

١ دكتور شوقي ضيف : العصر الجاهلي (١٨٥) .
٢ راجع قصيدته :
عيناك دمعهما سجال كأن شأنيهما أوشال
ديوانه ١٨٩ ، العصر الجاهلي (١٨٤) .
٣ العصر الجاهلي (١٨٤) .
٤ المصدر نفسه .
٥ كذلـك .
٦ كذلك (ص ١٨٥) .

فهي من وزن السريع ، وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

أنعم صباحاً علقمَ بن عدي أثويتَ اليومَ أم ترحلْ

فإنه من وزن المديد[1] .

وتستحق هذه الأمور وأمثالها أن تكون موضع دراسة خاصة ، لما لها من أهمية في تكوين رأي علمي دقيق عن تطور العروض في الجاهلية . ولا يعقل في نظري أن يكون الشاعر الجاهلي قد كان بغفلة عن تلك الأمور التي عدّهـا الإسلاميون من مواطن الاضطراب والخروج عن القواعد . وإذا قسنا هذا الخروج في الوزن على مقاييس وزن الشعر عند الساميين ، نرى أنه لم يكن خروجاً ، لعدم تقيـد ذلك الشعر بالوزن في كل القطعة أو القصيدة ، وإنما كانوا يتقيدون بوزن البيت، فالقطعة أو القصيدة عندهم منسجمة ذات نغم ووزن وإن تكونت من بحر أو من جملة بحور ، وربما كان هذا شأن القصيدة عند الجاهليين كذلك . ثم انه في هذه الاضطرابات دلالة على أن في العروض الجاهلي ما فات أمره عن علم (الخليل)، وأن العروض الاسلامي لا يمثل كل عروض الشعر الجاهلي .

وللخليل كتاب في العروض ، اسمه (كتاب العروض) لا أعرف من أمره شيئاً . وهو أول كتاب ألف في هذا الباب ، وحمل هذا الاسم ، على ما أعلم ، وله كتاب اسمه (كتاب النغم) ، وكتاب آخر اسمه (كتاب الإيقاع)، وكتاب اسمه : (كتاب الشواهد) ، وكتاب اسمه (كتاب النقط والشكل) ، وكتاب باسم (كتاب فائت العين)[2] .

ولأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٢١٥ هـ) ، (٢٢١ هـ) ، وهـو أحد أصحاب (سيبويه) ، كتاب في العروض ، اسمه : (كتاب العروض)[3] .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ الفهرست (٧١) .

٣ الفهرست (٨٤) .

وعرف (الخليل) بسعة علمه باللغة ، واليه ينسب وضع أول معجم في اللغة العربية ، هو كتاب (العين) . وقد نظمت حروفه على مـا يخرج من الحلق واللهوات[1] . وهو ترتيب يرى بعض المستشرقين احتمال أخذ (الخليل) لـه من ترتيب الأبجدية السنسكريتية وذلك عن طريق (خراسان) التي لها صلة وثيقة بثقافة الهند[2] . وقد نسب بعض العلماء كتاب العين الى غـيره ، نسبه الى (الليث بن نصر بن سيّـار) الخراساني ، ومنهم من زعم أن (الخليل) عمل قطعة من كتاب العـين من أوله الى حرف الغين وكمله (الليث) ولهـذا لا يشبه أوله آخره[3] .

وقد كان للهنود حب شديد للشعر ، وقد نظمت كتبهم الدينية شعراً ، وقد أدرك (البيروني) الواسع الاطلاع بأحوال الهند هذا الحب الشديد له ، فقال : « أكثر الهنود يهتّرون لمنظومهم ويحرصون على قراءته ، وإن لم يعرفـوا معناه ، ويفرقعون أصابعهم فرحاً به ، واستجادة له ، ولا يرغبون في المنثور وإن سهلت معرفته » . وقد كانوا يزنون شعرهم بميزان ، فـ « عملوا من التفعيلات قوالب لأبنية الشعر ، وأرقاماً للمتحرك منها والساكن ، يعبرون بها عن الموزون، فكذلك سمى الهند لما تركب من الخفيف والثقيل ، أسماء يشيرون بها الى الوزن المفروض[4]. فإذا كانت للهنود تفعيلات وزنوا بها شعرهم ، وهي أقدم عهـداً من تفعيلات (الخليـل) ، أفلا يجوز أن يكون (الخليـل) قد اقتبس تفعيلاته من تلك التفعيلات ، وبين الهنـد و (الابلة) التي حلت البصرة محلهـا في الاسلام اتصال جد قديم ، وقد كان بين سكانها عدد كبير جاءوا قبل الاسلام من الهند .

وحيث أن العلماء ينصون على أن (الخليل) ، هو موجد البحور المعروفة في العروض ، وهو وازنهـا ، وحيث أن أساس المعايير التي قيست بها الأبيات ، للوقوف على البحور هي (فعل) فيجب أن تكون هذه التسمية من ابتكاراتـه إذن . ولم أجـد أحداً وضح كيف اهتدى الخليل الى إيجاد هذا المعيار ، ولِمَ

---

١ الفهرست (٧٠ وما بعدها) .

٢ John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 8.

٣ القفطي ، انباه الرواة (٣٤٣/١) ، المزهر (٧٦/١) .

٤ البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة (٦٦) .

سمّاه بهذه التسمية ، إن من المستحسن في نظري الاهتمام بهذا الموضوع ، ودراسة موازين الشعر عند الهنود ، لمعرفة أسماء معايير الشعر عندهم ، للوقوف عليها ، فقد تكون لهذه التفعيلات صلة بتفعيلات شعر الهنود . ويلاحظ أن (ابن جني)، كنّى بالتفعيـــل عن تقطيع البيت الشعري ، لأنه إنما نزنه بأجزاء مادتها كلها (فعل)[1] .

---

١ تاج العروس (٦٥/٨) ، (فعل) .

obeikandl.com